

طفلُ الحَافَّةِ، ومَهْمَةُ التَّربِيَةِ عند مُحمَّد شوقي الزين

The child on the margin and the task of bildung in Mohammed Chaouki Zine

فايزة بغياني * Baghiani Faiza

baghiani.faiza@univ-guelma.dz

ORCID: 0009-0006-0056-6970

DOI: 10.46315/1714-015-002-007

الفلسفة الغربية المعاصرة/ جامعة 8 ماي 1945، قالمة، الجزائر

الإرسال: 2025/07/24 القبول: 2026/04/16 النشر: 2026/06/10

**

ملخص:

بدءاً من الطفل انبجست عدّة فلسفات؛ كشخصانية إيمانويل مونييه، الذي أكّد بأنه قبل الأنا طفل توجد النحن العائلة والتي يكتسب منها أنه، وحوارية مارتن بابر الذي يفتتح فيها التواصل بصرخة الطفل الأولى عند دخوله العالم؛ التي هي صرخة منفي ونداء للآخر الأمومي، هو طفل سيبقى يسكننا مدى الحياة، ليتخذ له حافةً من ذواتنا للإقامة فيه، لذلك كان الهدف هنا هو تكوين الإنسان قيمياً ضمن أفق كوني، منذ الطفولة التي تُعدُّ مرحلة عُمرية حاسمة، وقد اعتمدنا المنهج التحليلي-النقدي، لتحليل المواقف الفلسفية التي جعلت من الطفل المفهوم المركزي، الذي تتقوّم به صروحها التي لا تتأسس إلا بالنقد، مع بسط موقف محمد شوقي الزين حول نشأة البيلدونغ كنظرية في التربية القيمية؛ والتي استنتجنا معه بأنّ البايديا الإغريقية المشتقة من الجذر بايس أي الطفل، تمثّل ذاكرة البيلدونغ وطفولتها؛ التي تتجاوز مفهوم التربية إلى نقّش الكوني في الخصوصي.

كلمات مفتاحية: الطفل، الحوار، البايديا، البيلدونغ، القيم.

Abstract:

From the child, several philosophical projects have unfolded: Mounier's personalism, which affirms that prior to the ego there exists the familial we from which the self is formed; and Buber's dialogical philosophy, which opens communication with the child's first cry upon entering the world-a cry of exile and a call to the maternal other. The aim, therefore, is the axiological formation of the human being within a universal horizon, beginning in childhood as a decisive stage of life. Adopting an analytic-critical method, we examine philosophical positions that make the child their central concept, grounding their structures in critique. We also elucidate Mohammed Chaouki Zine's account of the emergence of bildung as a theory of value formation, showing-alongside him-that Greec paideia, derived from pais, constitutes the childhood and memory of bildung, exceeding education to inscribe the universal within the particular.

Keywords : Child, dialogue, paedia, bildung ; Values.

**

1- مقدمة:

منذ عهود الفلسفة الأولى، انبجست علاقة وتينية تجمع الفلسفة بالطفل لتندمج الألفة بينهما، فأغلب الفلاسفة منذ أفلاطون في الجمهورية إلى لفيناس في حرية صعبة (مقالات في اليهودية)، ذيلوا مشاريعهم بنظرية في التربية، لأنَّ الاشتغال على الإنسان منذ الطفولة هو الرهان لتكوينه ذاتياً، ومن ثَمَّ تكوين حضارة رائدة، فلو قمنا بالبحث في أرشيف الخزانة اليونانية العريقة، لوجدنا البايديا Paedia؛ التي يُقصد بها ترجمة الكوني في الخصوصي، لتتجاوز السلوك الإنسي الذي توطره التربية، وهي مُشتقة من الجذر الإغريقي Pais أي الطفل، وقد نشأت في رحم الفلسفة الإغريقية، لتتطور على الأرضية الفلسفية الألمانية في نظرية البيلدونغ، مع التيار الرومانسي الذي سطع نجمه في حقبة الأنوار، فلطالما كان هذا المفهوم حاضراً في المتون الفلسفية الكبرى.

إنَّه ذلك الطفل الذي يسكن هامشاً من ذواتنا، في شكلٍ من الحضور والغياب ليرافقنا أينما ارتحلنا إلى آخر العمر، وهو أيضاً المفهوم الذي تردد صداه بكثرة في الكتابات البكر والناضجة للفيلسوف الكوني محمد شوقي الزين، فصلب مشروعه الفلسفي كان يركز حول التأسيس لبيلدونغ ثائرة على المركزية، تتحدد بالتركز الأكسيولوجي اسمها الآخر فلسفة التَّربية، التي هي قصة تكوين وإزهار الكائن الإنسي؛ أكسيولوجياً، وإبستمولوجياً، وأنطولوجياً منذ الطفولة، لغرس بذرة الاختلاف و التسامح في كل طفل من أرجاء المعمورة.

هنا نطرح الإشكالية التي تتشظى إلى الأسئلة التالية: هل البايديا مجرد تدريب للجسد وصقل للفكر؟ أم هي مشروع لصناعة الإنسان القيمي، تتجاوز الفصل بين الجسدي والمعرفي والقيمي؟ كيف ستعيد بيلدونغ شوقي الزين الاشتغال على طفل حافة ذواتنا أكسيولوجياً؟ أوليست الطفولة مرحلة يمر بها الإنسان وتندثر؟ كيف سيعود الطفل الغائب في الراشد الحاضر، لُبْرُك نظام الحضور، ويصبح عمله كالآثر والإجراء فيه؟ هل من ضيافة نعد بها ذلك الطفل المنسي، الذي يسكن هامشاً منّا؟

إنَّ الفرضية التي نطلق منها هي استجلاء مكانة الطفل في الفلسفة، فأهمية هذه الدراسة؛ تكمن في كونها تسلط الضوء على الكيفية التي تمَّ التأصيل بها لفلسفة الطفل عند شوقي الزين، وهو ما تستجليه نظرية البيلدونغ، التي كانت في مرحلتها الفتية بايديا؛ تهتم بتكوين الطفل ليكون مواطناً فاضلاً، معتمدين في بسطنا للفلسفات، على المنهج التحليلي-النقدي الذي يتواءم مع فحوى موضوع الطفل، الذي بمجرد دخوله العالم، يدخل في علاقة بُنوة مع أمه مُستهل كل العلاقات الممكنة.

2- نداء الطفل إلى الآخر-الأمومي، ومهمة البايديا:

لقد استضافت متون الفلاسفة المعاصرين الطفل، الذين راهنوا على أن تتحول الأحرف التي حملته إلى فعل وصنع؛ يتحدد كإتيقا الإحسان إلى الآخر الطفل، وهنا دشنت شخصانية إيمانويل

مونيه بداياتها الأولى، التي تنطلق من فرضية مفادها أنه قبل الأنا-طفل، يوجد النحن-العائلة التي يكتسب منها أناه، وحوارية مارتن بابر التي كَلَمَتنا عن الطفل، منذ أن يكون جنيناً في رحم أمه-الإنسية، إلى أن يولد ويصير جنيناً في رحم أمه-الأرض، أما إتيقا التضحية عند إيمانويل لفيناس فقد حدثتنا عن الآخر-الإن، الذي في صرخته البدئية نداءً للآخر-الأمومي؛ مفتتح كل اللقاءات، ونظرية البيلدونغ عند شوقي الزين تركز على مفهوم الطفل منذ أن شَقَّت خطواتها البدئية.

لذلك كانت البيلدونغ في الثقافة الإسلامية مع شخصانية محمد عزيز الحبابي، تتقوّم بتفتح الأنا؛ المرتبط بالقصدية الفينومينولوجية، التي تجعل الوعي متحركاً من الذات نحو الآخر، ومفهوم التفتح استعاره من عند موريس ميرلوبونتي، الذي استعمله للدلالة على تفتح الجسد في العالم مع الآخرين، وقد أُستخدم المصطلح في علم النبات عندما تنفتح الورود، ومن شأن التفتح كما يقول شوقي الزين أن يمدّ الذات بمقوّمات تهذيبها وتكوينها، فتكوين الذات رهين بالتفاعل مع الآخر، والاشتغال على الذات وحده غير كافٍ، ما لم يكملّه اللقاء والتعارف والمشاركة. (الزّين، م، 2014، 426). في المعارف والخبرات والمنجزات المختلفة. فمنذ طفولة التاريخ نشأت علاقة ترابط صميمي بين الأنا- طفل والأنت الأم-الكون؛ هذا ما يؤكده قول بابر: "حياة الطفل التي سبقت الولادة هي حياة ابتلاف وتواشج جسدي؛ ليستمر الواحد في الآخر، وأفق حياته، حين يأتي إلى الوجود، يظهر منعزلاً، كأنّه مرتسم ومنمحي، في قلب الحياة التي وُهبّت له، صحيح لم يعد يسكن رحم أمه الإنسية. ولكن رغم ذلك فإنّ هذه الصلة تنصبغ بالكونية. أين يمكن استيعاب المقولة الميثولوجية اليهودية "يتعرف الإنسان في جسم أمه على الكون الذي ينسأه عندما يولد"، ليصبح بمثابة شيفرة نُقِشت عليها آثار الأزمنة الغابرة. إنّها الصورة السرية للشوق (...) الشوق إلى التواصل الكوني، مع الأنت الحقيقية، لهذه الحياة المتفجرة من الروح." (Buber, M, 25). عندما نصت إلى صرخة الطفل المنفي إلى العالم؛ بانفصاله عن رحم أمه، سندرك أنّه في الخفقان والألم نداء إلى الأم، حتى أثناء استماعنا إلى غرغرة المُحتَضَر عندما تبلغ روحه الحلق التي فيها مناجاة للإله ، سندرك بأنّ الانسان لا يتميز باللوغوس بل بالحوار، منذ أول محطات حياته إلى آخرها، وبابر هو من أهدانا فلسفة الحوار، يكون فيها تلبية الأم لنداء طفلها، ليس شرط حوار فقط بل شرط حياة وسخاء، وكلنا هذا الطفل المنفي إلى مسرح العالم الذي فيه تتجسد اليوفوريا في شاهق معانها رغم الألم، بتلبية النداء.

بعد الميلاد يسكن الطفل رحم الأم-الكبرى؛ الأرض أين تمر ساعات الظلام الحزينة كل ليلة، غير أنّ وضع الطفل ليس كارثي كانفصاله عن رحم أمه الإنسية، التي سيبقى يتوق للتواصل معها، هو كالإنسان البدائي الذي يتلمس الأشياء، وكأنّه يكابد للتواصل مع الأنت، عندما تتحرك يده

بخجل نحو موضوعات العالم، وفي حَبَسَتِهِ البلا أحرف؛ مُستهل الحوار، هو كالطفل الذي يَهْمِس بلا كلمات، إنَّها غريزة الحوار المنقوشة في الإنسان، ويلمس الآخر-الأمومي تتأسس علاقة الحنان التبادلية، التي تسبق علاقة الخلق كالليل لتركيب الألعاب، وتتطور روح الطفل بالشوق إلى الأنت-الأمومي، التي من خلالها يصير أنا-طفل، فللإنسان والدتان؛ الأم الإنسانية والأرض، لأنَّه طفل الأرض أيضاً. (Buber, M, 25-27). وهو التصور الذي ساد الحضارات الشرقية القديمة، فالإنسان في صميمه ألفة وانتلاف مع الأرض؛ التي يرمي إلى إقامة علاقة معها ومع الآخرين، لأنَّه في كل لحظة حوار فرصة شفاء وترميم، فالإنسان في أقصى درجات الانجراف يحتاج إلى الآخر للتحاور معه، الأمر الكفيل بأن يُحدث تحولاً ذاتياً ليُشفى من آلامه، وترمم الخدوش التي أصابت قلعه الباطنية. وشوقي الزين هو الآخر ملتزم بقضايا الإنسانية؛ لذلك بحث في الإنسان أيقونة الإغريق منطلقاً مع البايدا ؛ فلكي نبري وننحت الإنسان أخلاقياً وجمالياً، ينبغي أن نشتغل عليه منذ أن يكون طفلاً لأنَّه في الكبر يصعب نحتة، ومن هنا كان الطفل هو المفهوم الذي لا يتوقف عن الانكشاف والانمحاء في متون الزين شوقي الفلسفية، مثلما لا يتوقف عن الحضور والغياب داخلنا.

إنَّ البايدا الإغريقية تُمثل ذاكرة البيلدونغ؛ التي تنسجم في الثقافة العربية مع التهذيب، وقد شكَّلت التربية عند الإغريق العمود الفقري الذي تنتصب عليه الحضارة لتزدهر، لذلك حضي الإنسان بعناية بليغة؛ لأنَّه الكون المصغَّر تحفة الإغريق، لتسطع صنوف الريتوريقا، كالتأويل المرتبط بالعرفان العائد إلى بواطن الذات لتهذيبها قيمياً. (الزين، م، 2014، 328). والريتوريقا هنا تشدذ اللسان وتُكسب قوة الحجة والبرهان، ما يُطور تقنيات الحوار وفنون التواصل مع الآخرين المتعلمين، وعندما ترتبط بتأويل النص المقدس، تكف الذات على أن تكون قائمة بذاتها، لتتلمذ على يد النص، الذي يربطها بالآخر بإطلاق مذهبها وباريها. عندما يتكلم شوقي الزين عن البيلدونغ في مرحلته الفتية يستخدم البايدا، ويرجع إلى تحليلات فرنر ياغر، الذي تناول تاريخ التربية والثقافة معاً ؛ لأنَّ مرامهما واحد وهو الارتقاء بالإنسان في سلم الحياة، وقد كان الإغريق على قناعة بأنَّ التربية والثقافة تشغلان معاً، لذلك كانت قراءتهما واحدة، فالإنسان اجتماعي، والتربية هي الحيوية المتأصلة بالمجتمع، تعمل على تنشئة الطفل وتكوينه وجودياً، وهي تتحول بمقدار تحوُّل بنيته الداخلية، لأنَّها القيم المُعتنقة. (الزين، م، 2014، 330). التي تمثل روح وثقاف الثقافة التي لا تتوقف عن الخفقان فيها، ما يهبها كفايات الحياة المتجددة المتغيرة بتغير الأزمنة، حسب حاجات المجتمع، لأنَّ كل ما يصبح قار يتحول إلى مركز وصنم متسلط، يعيق انسيابية الفكر والحرية والتقدم .

لذلك كانت التنشئة المُبكِّرة للطفل بمثابة نوع من الطرب، تتواءم مع الميل الطبيعي لا إكراه فيها، فكل عناصر الثقيف من هندسة وحساب وفنون، التي تُكتسب بالإكراه لا تحرز تأثيراً على

الإنسان. (أفلاطون، 1994، 352-353). فالبايديا تشترط الحرية، أساس ثقف الإنسان في حقبة الأنوار. والثِّقاف هنا يتخذ دلالة اللوحة الخلفية والخفية للثقافة، كقواعد مستنبطة وتأملات باطنية : تؤول إلى رؤى العالم يُنضجها الثِّقاف، والبيلدونغ كثيرا ما تتم مقاربتها من خلال التربية لأنها تهتم بتربية الطفل، منذ ولادته ثم نشأته إلى أن يصير راشداً، فالبايديا انبثقت من كلمة بايس.(الزين، م، 2022، 98). والثِّقاف يُمثل في أحد معانيه البايديا التي امتلكتها الحضارة الإغريقية، ولم تتوقف عن ابتكارها في ولادات متجددة لا نهائية، انبثقت منها تشكيلات رمزية، ولغوية، وتربوية، وفلسفية، وسياسية، إلخ، يعمل فيها الثِّقاف على هندسة القلب الإنسي بتقويم الذات، فالتربية والثقافة رهاهما واحد، هو هندسة الإنسان إتيقياً واستطيقياً.(الزين، م، 2014، 331-332). كما أنَّ الثِّقاف هنا هو بمثابة النسغ الذي يغذي النبات ليُزهر ويتفتح، فالإنسان يُزهر ويتقف بلقاء الآخرين في العالم وعبر النص عندما يقرأ للمختلفين، ما يحقق الأديمونيا الأرسطية أي الحياة الطيبة المزدهرة التي استثمرت فيها مارتا نوسبوم، والتي أشاد شوقي الزين بمفهوم الإزدهار الذاتي لديها.

تمثل البيلدونغ امتداداً للبايديا؛ لأنهما عُنيا معاً بالبحث عن الإنسان في ظاهر الانسجام الكوني، والبحث عن الانسجام الكوني في باطن الإنسان، لذلك كانت البيلدونغ هي البايديا إغريقياً، وقد ترجمها فارون وشيشرون بالإنسانية Humanitas لاحقاً، لأنها مكّنت الإغريق سابقاً من صناعة ذواتهم.(الزين، م، 2018، 142). ليصبحوا أبطالاً على الوجود وأسياده، فعلى لوغوسهم تحرك رعى العالم؛ الذي سعى لوغوس الإنسان على أن ينسجم معه، على الرغم من كل الانتقادات المحتفية بهوامشه المظلمة، فالإغريق هم صُناع الإنسان الحر المتمركز في قلب الوجود، بعد أن نشأ تنشئة نمت كل أبعاده لا سيما منها العقلانية. كما أنَّ معنى الطفل عند شوقي الزين جدُّ فضفاض، فهو ليس المولود حديثاً الذي يحتاج لتغذية ورعاية، بل هو الطفل الذي يحضر في كل واحد منّا لنحمله داخلنا أينما ارتحلنا، ويصاحبنا في جميع مراحلنا العمرية، من الطفولة، إلى المراهقة، إلى الشباب، إلى الكهولة، إلى الشيخوخة، وهو لا يتقوّم بالغذاء بل بالإتيقا، ولا يتهذب بالعناية بل بالمصاعب، في صورة من المجاهدة الكنانية المستمرة، لتأمين طفلنا الداخلي القار فينا، فلا يفتأ عن تقويم إعوجاجه وتهذيب ما عدل عنه ليعدل به، لينتقل من العدول إلى الاعتدال فالعدل.(الزين، م، 2014، 333). هو الموقف الذي يتقاطع مع ورد في الإنجيل: "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان" (متى 4:4) فالإنسان يروم إلى تحقيق الاكتمال القيعي والمعرفي، كشبع جواني يسبق الجسدي، والبيلدونغ كأنسنة وتبرية للطبع؛ هي الكفيلة باقتلاع الإنسان من مملكة الحيوان إلى مملكة الإنسيّة الراشدة ليتفاخر. لذلك كانت السنوات الأولى من

حياة الطفل هي الحاسمة لهذيب هيولته، وغرس القيم المثلى في أدمته، وتحبيبه في القراءة؛ إنَّها الفرصة الكبرى للتلفس، ليلج عالم الإيكوزوفيا ويتكون لديه وعي إيكوزوفي تجاه البيئة، عندما يقتني له والداه كتب تتكلم عن أهمية الحفاظ على الطبيعة-الأم، فالقراءة في سن مبكرة تلعب دوراً حيوياً في تكوين الطفل، لتتوسع مداركه وخياله شعلة الابداع، ليصبح في رشده عضواً فاعلاً في المجال العام، لاسيما عندما يتهذب بالقيم؛ التي تغرس فيه إتيقا المسؤولية نحو الآخرين والعالم. كما ولشوقي الزين في مجال الفلسفة الموجهة للأطفال، ترجمة مبتكرة لكتاب قصّة الكون لجان بيار-بوتي، هو الفلكي الفيزيائي الذي أبدع فناً جديداً؛ "الشريط الرسمي كأدب رقي جديد"، وكتابه يعرض نشأة الكون منذ الحضارة الفارسية إلى الحقبة المعاصرة؛ أين حدث تطور علمي وتقني هائل. (بوتي، ج، دت، 3). هو الكتاب البسيط في مقاسه ورسوماته، التي تساعد الطفل في بداية مرحلة القراءة على استيعاب مواضيع علمية كبيرة، بعبارات سهلة وبسيطة، فالترجمة الموجهة للأطفال تتطلب من المترجم الانتباه؛ إلى الجانب اللغوي، والثقافي، والتربوي فيما ينقل، وهو ما قام به المترجم، كما أنَّ إدخال الفلسفة الموجهة للطفل إلى الفضاء العربي هو خطوة جريئة وفيها فرادة؛ لأنَّها تراهن على تنمية التفكير النقدي، والحواري، والإبداعي لدى الطفل، وفعل الترجمة يسمح بجمع الأنا بالآخر ما يجسّد ثقافة الاختلاف، لاكتساب القيم المثلى، التي تمكنه من الانخراط في مشروع الإنسيّة المستقبلية.

يقول الزين شوقي: "البايديا" أكثر من كونها فكرة مجردة ولا تُختزل إلى نظام في السلوك تؤطره التربية. "البايديا" مؤسسة ثقافية وترجمة الكوني في الفردي، والطبيعي في البشري، بإبراز الانسجام الخلاق للعالم الذي يتفجّر في الطاقات العقلية والفعالية للإنسان (ومنه حديث الرواقية عن "الاشتعال": نوع من "الانفجار العظيم Bing Bang في النظرية الفيزيائية الحديثة) (...) كانت "البايديا" الإغريقية تُشكّل ثقافة باتم معنى الكلمة، وكانت النموذج التاريخي والتربوي للبيلدونغ الألمانية. فهي تعني الطريقة التي يُطوّر بها الإنسان ملكاته الذاتية وقواه الجسدية والعقلية." (الزين، م، 2018، 137-138). إنَّها اشتغال على الكوني في الإنسان؛ لأنَّ كل مظاهر الكون تنعكس فيه، ففي راحة الكف خطوط كخطوط أوراق الأشجار، وهذا ما أدركه جيداً الرواقيون، الذين عمدوا باللوغوس إلى العيش في انسجام مع الطبيعة التي يحكمها اللوغوس الكوني، فقد آمنوا بأنَّ الإنسان وليدها، الذين عمدوا إلى برياته بالرياضات الروحية؛ كرياضات عرفانية وتربية تهذيبية.

في البايديا يؤلف الإنسان بين النظر والعمل، فيجتهّد على تطوير مهاراته الحوارية في مشهد المخاطبة، ما يحسّن الأداء على مسرح الحياة. مثلما كانت تفعل الفلسفة التي عزّت بوثنيوس في منفاه المتوحش، لتخبره أنَّ وقت العلاج بالفلسفة قد حان، فهو وليدها الذي غدّته بترياق البرهان العقلاني الذي نسيه، لتساعده على توليد ذاته بالحوار. (بوثنيوس، 2017، 39-43).

كما يجتهد الإنسان على تحسين حرفه في زخرفات الخط، ويعمل على حفظ لياقته البدنية، ما يُضفي جمالية على مظهره، فيمارس الجمباز الذي يحسن الأداء ويقود تركزه، ولا تتوقف الرياضة هنا بل تمتد إلى عقله بتمرين ذهنه بالحساب، وهي الشروط التي جعلت من البايديا ثقافة في التربية، ونهجاً في تدريب العقل على الحكم، لتمثل الروح الهيلينية في شاحق معانيها. (الزين، م، 2018، 138-139). التي أتمت رسم لوحها الفنية كإنسان، لتصبح أنموذجاً لكل الحضارات، خصوصاً عندما اشتغلت على جميع أبعاد الإنسان-الكون.

إنَّ نظرة العقل الإغريقي الموهل في القدم إلى الكون، نظرة جمالية زُخرفية باحثة عن المعنى؛ تجعل الإنسان يعيش العالم، لا يكتفي بضبطه بمقاييس العقل، لذلك كانت الفلسفة طبيعية قبل سقراط تبحث في الكون، الذي جعل فيثاغورس أصله عدداً ونغماً من فرط اتساقه، ليحدثنا عن موسيقى الأجرام والأفلاك، فالكون مُنسجم كلحن ونوتات موسيقي؛ الذي انتقل إلى الإنسان العالم الأصغر كامتداد للكون؛ المرتبط به بحبل سُري. (الزين، م، 2014، 336). وهو ما حدثنا عليه بابر، عندما قال يتعرف الطفل في بطن أمه على الكون الذي يبقى يتشوق ليحتويه، وما يدعم هذا الموقف أكثر، ما توصل إليه علماء الأنثروبولوجيا مؤخراً عندما رأوا أنَّ الظروف الطبيعية القاسية والمعتدلة تؤثر في الطبيعة البشرية التي تتكيف معها؛ فالكون يقبع في صميم الإنسان ويحتضنه.

3- البيلدونغ والاشتغال على طفل الحافة الذي يسكننا:

لقد استثمر الإغريق في الإنسان، الذين اهتموا بأبعاده حتى السياسية، فالتربية كانت عند أفلاطون عملية تضطلع بها الدولة، لتنشئة الطفل جسدياً، ومعرفياً، وقيماً، ومدنياً، إلخ. ونجد شوقي الزين بلور تأويلية سياسية، لا تعتبر السياسة مجرد عيالة حيوية للأفراد في منازلهم، بل تتعالى على ذلك، لتُعنى بتدبير السلوك الإنسي والفعل السياسي كما استوعبتها أنا آرنت، عندما تكلمت عن القول، والفعل، والحرية، والانزياح، إلخ؛ كخصائص فينومينولوجية للفعل الذي يؤسس لرحابة التعددية والتحرر بالعندية. (الزين، م، 2024، 25). لتكون الحرية مكفولة للجميع، بعد أن يهدم الفعل الفردي ليؤثت لطرق العيش سوياً.

نجد أيضاً ياغر وهب تعريفاً جديداً للفلسفة، يتماشى مع مشروعه في البايديا؛ التي يحددها بأنّها كانت منذ ميلادها بيلدونغ وثقافة، وليست نهجاً عقلياً أو علماً صارماً، وفي البايديا حدث التواشج الحميمي بين الثقافة، والطبيعة، والإنسان، والكون. لينعطف العقل على الحس لرسمه ونحته، فالعالم ليس مجرد موضوع للحواس، بل هو كائن حي وعاقل كما قال كريستوس، لوجود المبدأ الفاعل المتحد به؛ إله النار الحية-الفنية الخالقة للاتساق الكوني، لا سيما في المجال

العام.(الزَيْن، م، 2018، 131-132). فالعالم بلا نار يصبح مظلماً وحزيناً، لذلك اجتاحتها ألسنة نيران برومثيوس لتنيره بالجمرة الإلهية، التي تتحدد كعقلانية متقدمة، ليأتي التفكيكيين فيما بعد ويعتبروا الكتابة التي أعلوا من شأنها احتراق بنيران الأحرف والأفكار، للموت بالكلمات المشتعلة ما يهدم المركزيات. والبيلدونغ حسب تصور الإغريق، هي اشتغال على نيران اللوغوس في الإنسان والكون، لتأخذ شكل العناية بالنفس كنمط وجود، وفلسفة في التفتيش؛ في كُنَّةِ ونفس الذات عن نيران الخلق، ممكن الاتِّقاد والإبداع للارتقاء.

هي إذن رحلة تفتيش في الذات عن اللغز والحكمة كما عند ابن عربي، ما يؤسس القيمة التربوية للبيلدونغ، التي تروم لتكوين صورة عن الكون في الذات؛ ليست ذهنية خاصة بالإبستمولوجيا بل أنطولوجية وجمالية خاصة بالكينونة والاستطيقا، فالذات طيَّة من طيَّات العالم تختبئ فيها عناصره، وتستجلبها في المجال العام كسياسة وأخلاق.(الزَيْن، م، 2018، 141). فعندما نشتغل على الذات ونقود عناصر التركيز والإبداع فيها نحو الخارج، سوف نضفي على أفق مجالنا العام جمالية حضارية وازدهار.

إذا أردنا أن نفهم البدايات الفتية للبايديا والبيلدونغ، ينبغي العودة إلى الفوسيس Phusis؛ التي تشظت منها كلمة فيزياء Physique؛ وتعني الطبيعة كما تتجاوزها، لأنَّها فضفاضة وجدت تعبيراً بليغاً لها عند أفلاطون، الذي جعلها تحتمل دلالة جسدية في التكوين كخُلقة، ودلالة أخلاقية في السلوك كخُلُق، ودلالة سياسية واجتماعية في العيش معاً كتخلُّق، كما يمكن أن نفهمها كاستعدادات طبيعية قابلة للمدد والوجود، لأنَّ الإنسان كائن مددي خلاق. (الزَيْن، م، 2014، 132-134). في الوجود جاعلاً الطبيعة مؤنسة بلمسته، التي يتكيف معها ويكيفها لصالحه، من خلال الثقافة التي يتعالى من خلالها على الطبيعة، لتقود البايديا الفوسيس وتوجهها، لتقعيد السلوك الإنسي على التربية. لاستنباط قواعد التكوين وبلوغ الاكتمال في الخُلقة البيولوجية، لأنَّ الفوسيس هي قوة الخلق والإبداع، في لحظة يتقوَّم فيها المعوج بعد الاستعمال الحفيف للعقل، لتتقاطع البايديا مع الفوسيس في الاشتغال على خشونة الطبع منذ الطفولة، إنَّها عملية وعرة تستلزم النار التي تنصهر بها المعادن لتُنحت، وإن كان التعبير يحوم بين جنباته نوعاً من العنف، فالناس معادن وطباع؛ إذ قد تكون متصلبة تحتاج لنوعٍ قاسٍ من النار. (الزَيْن، م، 2014، 136-137). لذلك كانت التربية كالصقل للمعدن بالنار لتشكيله جيداً، مثلما حمل برومثيوس الجمرة الإلهية إلى عالم الإنسان البارد، التي ترمز لنور العقل وحتى البايديا، بينما عالم الإنسان المظلم يرمز إلى الطبيعة التي لم ينعطف عليها العقل ليرسم عليها تولينات ثقافية متعددة.

لقد أثار انتباهي أحد التعريفات التي وهبها هيدغر للفوسيس، إثر تحليله لسؤال الأنطولوجيا البدني؛ لما كان ثمة وجود ولم يكن العدم؟ يقول هيدغر بأنَّ الإغريق كانوا يطلقون تسمية فوسيس على الطبيعة؛ التي كانت تستخدم كترجمة للكينونة، وكانت تعني أثناء ترجمتها الحرفية

الولادة، ويعرّف هيدغر الفوسيس بالازدهار الذاتي؛ كظهور، وانبثاق، وتفتح، وانكشاف، وسطوع، وبزوغ؛ كشروق الشمس، ونمو النباتات، وتلاطم أمواج البحار، وخروج الإنسان والحيوان من الأرحام، هي الكينونة عينها التي تندفق منها الكائنات وتنجلي (Heidegger, M, 1967, np). والطفل عندما يولد هو كالفوسيس الخام، التي تحتاج للصقل والنحت بمبرة البيلدونغ؛ باعتبارها نظرية أكسيولوجية تهذب الغلظة والفجاجة، لطرح ما هو سلمي في الذات من رذائل. إن شوقي الزين لا يروم إلى شحذ الرأس معرفياً، بل صقل الطبع إتيقياً-استطيقياً ببذور الفضيلة، فالمرام ليس إحداث التكوين المعرفي وهو خطأ الأنوار الأكبر، بل تحقيق التقويم الأخلاقي والتكوين الروحي-الفكري، ومن هنا بحث البيلدونغ في الإنسان المترکز وليس المتمركز، ذلك الإنسان الذي يجمع كل قواه في باطنه، ويوجهها نحو غايات نظرية وعملية بناءة. (الزين، م، 2018، 143).

فكأن البيلدونغ نوعاً من الأكسيولوجيا الجديدة، التي تراهن على براية إنسان أكثر إنسية من إنسان الأنوار المتمركز، لتُمني جانبه القيمي المنسي لا سيما منه العرفاني-الصوفي لتكون التبرية-دينية.

هنالك استعارات فلسفية عدّة، حاولت وهب معنى وافي للبيلدونغ؛ كفلسفة في التربية والثقافة، أهمّها استعارة شيشرون "فلاحة النفس"، فكل حقل مهما كان خصباً لا يمكن أن يُنتج بلا فلاحة، كالنفس بلا تعليم والإنسان بلا تربية، إنّها فلاحة من طراز خاص، لأنّها تتم بالإتيقا والاستطيقا، لتبتر الرذائل وتزرع بذور الفضائل في النفس ما يبري الإنسان قيمياً، لاقتناء محاصيل الإزدهار، وهو ما يتماهي كثيراً مع ما ورد في القرآن الكريم، سورة الحج، الآية:5: "اهْتَرَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ"، فكما يتعالى النبات ينتصب الإنسان ويتسامى في الكون أخلاقياً ومعرفياً. (الزين، م، 2018، 145). إنّ هذا الفيلسوف يسرد لنا قصة تكوين الإنسان وتصويره، بأنفاسه القيمية ونفحاته الصوفية؛ التي هي قصة مهمة ومثيرة في الآن، تستجلي كيف تنمي التبرية الجانب الإتيقي، والإستطيقا، والحيوي، والمعرفي، والوجودي في الإنسان، للوصول به إلى أحسن صورة جوانية-روحية، بعد الصورة التي وهبه إياها خالقه بسخاء، فالتبرية هنا أبدية لا تتعلق بمرحلة عُمرية لأنّها اشتغال لا نهائي على الذات.

إنّ ظاهرة عطاء الصورة حسب قراءة جان لوك ماريون، لا يُنظر إليها كظاهرة مُعطاة للرؤية فحسب، بل ككيفية في تجلي الإله في الإنسان لأنّها تنأى عن التشيؤ، لترتبط بالوجود الإلهي؛ وتتعالى على أدران الهيولة، ففي المسيحية يكون الإله معطاءً بلا حدود ليتجاوز منطق الحضور والمحايثة، ويكون أيضاً عصياً عن التفكيك؛ بتعاليه، وسخائه، وحبه للإنسان الذي خلقه على

صورته. (Marion, J, 2008,168-169). فمن سمات الصورة التي ينصبغ بها الإنسان منذ أن يكون طفلاً هي السرمدية، وإن كان جزءً منه هيولاني يربطه بالجلفية، والجزء السرمدي فيه هو مصدر اعتزازه، الذي تراهن التربية على الاشتغال عليه لتنميته وإشعاله. كما أننا عندما نقوم بعملية القلب الإتيمولوجي لمصطلح التَّربية، نحصل على التَّربية المقابل العربي الذي يقترحه شوقي الزين للبيلدونغ، كبراية وتشكيل قيمي للإنسان، مثلما يُشكِّل الله الجنين في بطن أمه، ليربوا بعد ولادته كما يربوا الزرع، إنَّه حرثٌ، وزراعةٌ، واستثمارٌ في الإنسان، من أجل جني ثمار الإنسانية المنبثقة من شرارة الخلق، في صيرورة من الولادات المتجددة. فالبيلدونغ هي حركة نحو الشكل الخاص، وتصوير الأفكار والأكسيولوجيا في النفس البشرية، فالْبُغْيَةُ، والأُمْنِيَّة، والرهان من التصوير في البيلدونغ، هو بلوغ أفضل خِلقة لها قيمة جمالية، للوصول إلى أفضل خُلُقِيَّة لها قيمة أخلاقية. (الزَّين، م، 2018، 26-27).

لذلك تقوم التَّربية على تركيز القوى والملكات في هيئة كائنية في مجالها، ثقافية في أدائها، غورية في منهجها، تبحث في مركز الإنسان من أجل البرء من أمراض الوجود المزمنة، لتكون بارئية تنجلي كطب فلسفي يحاول أن يجري الطب الجسماني في علاج العلل الباتولوجية، والطب النفسي في علاج التشوهات النفسية، فالبارئية هي ضربٌ من العلاج بالفلسفة كما عند جون غرايش وبيير هادو. (الزَّين، م، 2018، 590-591). سُمِّيَ سابقاً عند الرازي بالطب الروحاني؛ الذي يشتغل على الذات لبرايتها وتقويمها قيمياً. وهو ما يُعرف بثثقيف الذات عند سلامة موسى والتفتح عند الحبابي كعملية تكوين مستمرة، وهما امتداد لتاريخ طويل حول التكوين الإنسي، منذ فجر الإنسانية العربية الإسلامية مع ابن مسكويه والتوحيدي، ويضع سلامة موسى الثقافة المصرية-العربية صلب التطور الذهني والاجتماعي، مقترحاً ثقافة متحوّلة تستفيد من المنجزات والمعارف الرائدة، لتشكل رصيذاً معرفياً وسلوكياً مثمراً، أين تنطلق الثقافة من الذات نحو الآخر وتعود إلى الذات في دورة تهاديبية. (الزَّين، م، 2014، 407).

4-مناقشة النتائج:

إنَّ البيلدونغ تشتغل على الإنسان، منذ أن يكون طفلاً في جميع مراحل عمره، فهي لا ترتبط بمرحلة أو طور دراسي معيّن، لأنَّها تختلف عن التعليم في كونها تكوين قيمي مستمر، ورأى سلامة موسى في حقبة النهضة؛ أنَّه في انفتاح الوطن العربي على الحضارات واستفادته من منجزاتها، بعد اشتغاله على الذات، بوادِر التكوين البكر للبيلدونغ عربية.

من هنا كان يُستلزم منّا الاستثمار في الإنسان منذ الطفولة، ليكتسب الطفل معارف وقيم بتعويده على القراءة، ليتعرف على ثقافات الغير من خلال الكتب، ما يهبه حساً نقدياً يكون مُفتتحاً لكل اختلاف، وتسامح، وفلسف، من هنا ترجم شوقي الزين قصَّة الكوْن لجان بيار-بوتي،

المُندرجة ضمن فلسفة العلم الموجهة للأطفال، بأسلوب واضح يجعل الطفل يستوعب نشأة الكون، من الأسطورة الفارسية إلى عصرنا الرقمي.

صحيح لم يخصص شوقي الزين عمل بعينه لفلسفة الطفل، لكن أثناء اطلاعنا على أهم كتبه لاحظنا أنَّ مفهوم الطفل دائم الحضور في فلسفته؛ التي فيها جانب ضمني مخصص للطفولة، لا يُفصح عن نفسه إلا بالعودة إلى البايدا؛ التي تهتم بتنشئة الطفل ضمن أفق جسدي، ومعرفي، وأكسيولوجي، وسياسي، ويتجاوز شوقي الزين هذا الطرح في التَّربية؛ التي تراهن على التكوين المستمر للطفل الذي يسكن حافةً من ذاتنا طول العمر، فالإنسان مشروع مفتوح لا يكتمل لأنَّه ينبني تدريجياً عبر الزمن.

5- خاتمة:

في ختام دراستنا نصل إلى نتائج، تسلسل كالآتي:

مثلما تحدث ميشال دو سارتو عن إنسان الحافة، نحن اليوم نتحدث عن طفل الحافة والهوامش المضلمة من نفسيتنا وأيضاً العالم، هو الطفل الذي استدعاه الفلاسفة في متونهم، كأنَّه استدعاء لما تمَّ نسيانه، ليتخذ الموضع المركزي في حوارية مارتن بابر وفلسفة شوقي الزين، في مشروعه الفلسفي الذي تتمفصل فيه نظريته في البيلدونغ.

تروم التَّربية إلى تكوين الإنسان ونحته بالقيم الكونية؛ هو النَّحت الذي يبدأ منذ الطفولة، لذلك مثَّلت البايدا ذاكرة البيلدونغ؛ التي راهنت على رسمه ضمن أفق كوني، ومفهوم الطفل هنا له معنى فسيح، فهو الطفل الذي يسكننا ليرافقنا دائماً، لذلك وجب أن نواظب ونخلص في الاشتغال عليه.

مع شوقي الزين أصبح يمكننا الحديث عن بيلدونغ عربية-إسلامية، وهو ما انجلي مع الحبابي وسلامة موسى؛ الذي حدَّثنا عن التحول الذي حدث في الثقافة العربية في عصر النهضة، بفعل تثقيف الذات الذي هو ليس حكراً على الثقافة الغربية، والتكوين الذاتي هنا كثقافة وتربية، يتم من خلال العودة إلى محددات الشخصية العربية، والأدوات النظرية المتاحة من التراث والذاكرة للاشتغال عليها بأدوات الراهن.

لكي هذا لا يعني البقاء في الماضي منغلقيين على الذات في شكل رجعي-نكوصي، بل ننفث على الآخر من أجل التحول، والتغير، والتجدد، فالإنسان منذ البداية لا يطلب أن يكون وحيداً، ففي صرخة الطفل الأولى مناجاة ودعوة للآخر-الأمومي-العائلة، الأمر الذي يدشِّن كل تواصل ولقاء، وفي تلبية نداء الطفل أولى خطوات التكوين الذاتي والتَّربية.

إنَّ فلسفة الطفل لا تنجلي كمادة تعليمية كالرسم، والأدب، والرياضيات، إلخ، لأنَّها برنامج ليس تربوي خالص، بل فكري- قيمي؛ يُبنى منذ الطفولة بكيفية تفاعلية، ما ينبغي الحس الفلسفي بالانفتاح على الغير، فهي استجلاء لما هو فلسفي في تأملات الأطفال واستفساراتهم؛ كممارسة للتفلسف البدئي، وفلسفة الطفل مشروع لا ينبغي أن يُؤجَّل أبداً.

**

6- المصادر والمراجع :

أ-المصادر:

- 1- الزين، محمد شوقي. (2014). الثَّقَافُ في الأُرمَنَةِ العِجَافِ: فلسفة الثقافة في الغرب وعند العرب، الرباط، الجزائر العاصمة: منشورات ضفاف، دار الأمان، منشورات الاختلاف.
- 2- الزين، محمد شوقي. (2018). نقد العقل الثقافي: فلسفة التكوين وفكرة الثقافة أساسيات نظرية البيلدونغ، ج1، بيروت، الدار البيضاء، عناية: المؤسسة الجامعية للدراسات، مدارج، الوسام العربي.
- 3- الزين، محمد شوقي. (2022). نَقْدُ العَقْلِ الثقافي: رُؤْيَةُ العَالَمِ وَنَظَاثُ الثَّقَافَةِ، بُنْيَةُ الثَّقَافِ، ج2، وهران، بيروت: ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية-ناشرون.
- 4- الزين، محمد شوقي. (2024). ثِقَافُ السِّيَاسَةِ والأَخْلَاقِ: كتابات سياسية، وهران، بيروت: ابن النديم للنشر والتوزيع، دار الروافد الثقافية-ناشرون.

ب-المراجع:

- 5- Buber, M, I and thou, Translation: Ronald Gregor Smith, Edinbrugh: T.& T. CLARK.
- 6- Heidegger, M. (1967). Introduction à la métaphysique, Traduit : Gilbert Kahn, Paris: Gallimard.
- 7- Marion, J and al. (2008). Derrida, la tradition de la philosophie, Paris: Galilée.
- 8- أفلاطون. (1994). الجُمهُوريَّة : المخاوِرات الكَامِلَة، مج1، ترجمة: شوقي داود تمارز، بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع.
- 9- بوثلبيوس. (2017). عزاء الفلسفة، ترجمة: عادل مصطفى، مؤسسة هنداي.
- 10- غرايش، جون. (2019). العيش بالتفلسف: التجربة الفلسفية، الرياضات الروحية، وعلاجات النفس، ترجمة: محمد شوقي الزين، الرباط، بيروت: مؤمنون بلا حدود للنشر والتوزيع.

ج-المواقع الإلكترونية:

- 11- بوتّي، جان بيار، قصَّة الكوْن، (سنة النشر غير معروفة) ترجمة: محمد شوقي الزين، معرفة بلا حدود، تم الاسترجاع من الرابط <http://www.savoir-sans-frontieres.com>